

النثر العربي ومدلوله بين القدماء والمحدثين.

Arabic prose has its meaning between the ancients and the moderns

جوهري سعاد

جامعة سيدي بلعباس

souaddjoughri49@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/..9/.15. تاريخ القبول: 2023/1/14

تاريخ النشر: 2023/.3./..8.

الملخص:

لم يهتم النقد القديم بالنثر بمستوى اهتمامه بالشعر، ولم يأت هذا الاهتمام إلا في مرحلة تطور الحياة الفكرية وظهور علم الكتابة لدى العرب، فقد كانت ثقافة الشعر والثقافة الشفهية بشكل عام هي السائدة، وعندما اتسعت الثقافة العربية وازدادت عوامل الحاجة الى الكتابة تطورت الكتابة النثرية واتخذت اشكالا متعددة من التطور والنضج. في هذا المقال عرض لمجموعة من المفاهيم التي جاء بها النقد قديما وحديثا.

الكلمات المفتاحية. النثر. الكتابة. الثقافة. الشكل. الخطاب.

Abstract:

Ancient prose criticism did not pay attention to the level of its interest in poetry, and this interest came only at the stage of the development of intellectual life and the emergence of the science of writing among Arabs Multiple development and maturity. In this article, a set of concepts presented by criticism, ancient and modern, are presented.

key words . prose. L'écriture. la culture. la forme. le discours

إنَّ المتصفح لأهم كتب النقد والبلاغة العربية تصادفه ظاهرة قلة العناية بالنقد العرب القدامى بالنثر، في حين أنهم أمعنوا النظر في الشعر واحتضنوه بالعناية والدرس والتدوين في جميع ألوانه وأغراضه ، ولم يكن النثر ليأخذ حيز الدراسة إلا في أبواب مقارنته بالشعر ، بل ظلّ يحتل مرتبة ثانية بعد الشعر، إلا أن بدأت الحياة العربية تدخل عهدا جديدا من التعقيد الفكري والاجتماعي - في العصر العباسي - عند ذلك أخذ النثر مكانه الحقيقي، واتسعت مساحته في ساحة الفكر والثقافة والحياة ، وشارك الشعر - بل تفوق عليه أحيانا - في تناول جميع المظاهر الاجتماعية والمناسبات الخاصة والعامة ، وتصوير عواطف الأفراد وأفكارهم ، ومعالجة همومهم وآمالهم . حتى أضخى هذا الفن الأدبي يسجل أكبر حضور له على الساحة الأدبية في عصر الازدهار الفكري والأدبي في القرن الرابع الهجري ، من خلال قدرته على احتواء الكلام والتعبير جميعها آنذاك ، من خطابة ورسائل ومقامات وقصص...

إنَّ الخوض في دراسة هذا الفن كتصور وماهية ومنبع للكتابة الأدبية ، وتحديد معالمه ورسم حدوده الاصطلاحية في الدرس الأدبي والنقدي التراثي يلزم الباحث في دلالاته الوقوف على الجذر اللغوي لمصطلح نثر في معاجمنا اللغوية، والتي في حقيقتها تقصر ماهيته على الدلالة المادية الحسية ، ثم الوصول به - تدريجيا- إلى أن يصبح ذلك الفن القولي لا ينفك أن يكون ضدا للشعر في المباحث الأدبية التراثية

ماهية النثر :

لغة: ورد في لسان العرب: "نثر الليث ، النثر ، نثر الشيء يدك ترمي به متفرقا مثل الجوز واللوز والسكر ، ولذلك نثر الحب إذا بذر وهو النثر والنثار" ²¹. وفعل النثر بهذا المعنى يعني جعل الشيء متفرقا مبعثر الأجزاء ومنه نثر ينثره ونثره فانثر وتناثر والنثارة ما تناثر منه الاجزاء ، وهي الدلالة التي تذهب إليها صيغة افتعل انتثر إذ يقال : " انتثر القوم وتناثر إذا تفرق " ³. وهو ما يعني الانتشار في الارض وعدم الاتحاد . وفي سياق آخر تقتزن دلالة نثر بالكلام فيقال رجل نثر " مهذار ومذيع للأسرار ، ورجل نثر كثير الكلام " ⁴. فالنثر يبسط القول ويجعله في متناول الاسماع لأنه يعشق الإسهاب في الكلام والإطالة فيه . ويضيف الزنجشري في مادة نثر ما يزيد في وضوح هذا المعنى وثمائه وثرائه فيقول: "نثر اللؤلؤ وغيره وقد انتثر وتناثر ودر منشور ونثير ⁵... والنثر على هذا النحو هو الكلام الكثير المتفرق المنتج على غير نظام تشبيها بنثر الدر أو اللؤلؤ.

وفي مقاييس اللغة نجد: " نثر الشاة ، طرحت من انفها الأذى ويسمى الأنف النثرة من هذا لانه ينثر ما فيه من الأذى ، وجاء في الحديث "إذا توضأت فانثر " معناه اجعل الماء في نثرتك " ⁶. كل هذه الدلالات المختلفة لكلمة النثر في المعاجم اللغوية العربية تتفق على أن أصل النثر مادي حسي ، ويقوم على التفرقة والتوزع أي ان الشيء كان مجتمعا ثم تفرق وتبعثر دون نظام يحكمه .

غير أن هذا الأمر لا يكون في المعاني كلها ، فانثار الكواكب يدل على أن وجودها ليس عبثا بل وفق قوانين تنظم سيرها ، فنحن ندرك مما جاء في الآية الكريمة " وإذا الكواكب انتثرت " ⁷ أن للكون نظام يسير وفقه ، وإن بدت الكواكب منتشرة في الكون والفضاء ، فهي تخضع لنظام معين .

واصطلاحاً: هو في المعنى العام الكلام المرسل الذي أطلق من قيود الوزن والقافية . وهو على أنواع*: نثر عادي ونثر علمي ونثر فني* . وهذا الأخير هو ما دخل حيز الدرس النقدي والأدبي .، وهو ما تعيننا دراسته والبحث في فنونه وسماته الأدبية . وهو ما يرتفع به أصحابه عن لغة الحديث العادية ، ولغة العلم الجافة إلى لغة فيها مهارة وفن وروية . وهي لغة الأدب التي تتحقق معها جمالية التأثير والاستجابة في المتلقي ..

جاءت أغلب مباحث مصطلح " نثر فني " في التراث النقدي العربي تدور كلها في رحاب المفاضلة بين الشعر والنثر . ولم يعثر في الدراسات على تعريف مضبوط للنثر الا مقابلا لمصطلح الشعر ، والدارسون لم يصلوا إلى معان واضحة وحدود فاصلة الا في عقدهم مقارنات بينه وبين النظم "الشعر" في أبواب المفاضلة بينهما أيهما أشرف ؟ وأيهما أسبق للوجود من الآخر ؟

استقرت لفظة نثر في استعمال النقاد والأدباء على مفهوم الكلام الفني غير المنظوم الذي يقابل المنظوم (الشعر أو النظم) . جاء في كتاب البرهان : "واعلم أنّ سائر العبارة في كلام العرب إمّا أن يكون منظوماً أو منشوراً ، والمنظوم هو الشعر والمنثور هو الكلام"⁸ . جاعلا النثر كل كلام غير الشعر ، وهو ما يذهب الى معناه ابن خلدون عندما يعرض قوله : " اعلم أن لسان العرب وكلامهم على فنين : في الشعر المنظوم ، وهو الكلام الموزون المقفى . ومعناه الذي تكون أوزانه كلّها على روي واحد وهو القافية . وفي النثر وهو الكلام غير الموزون "⁹ ثم يفصل الحديث مبيناً ما يختص به كل فنّ من فنون الكلام : " واعلم أنّ لكل واحد من

هذه الفنون أساليب تختص به عند أهله لا تصلح لفنّ آخر، ولا تستعمل فيه مثل النسب المختص بالشعر، والحمد والدعاء المختص بالخطب، والدعاء المختص بالمخاطبات وأمثال ذلك¹⁰. ويعتمد بن خلدون على الوزن والقافية في التفريق بين الشعر والنثر: "وصار هذا النثر إذا تأملته في باب الشعر وفنّه لم يفترقا إلا في الوزن"¹¹.

ما يجعل النثر نثرا عند القدماء هو عدم إلحاقه بعناصر الإيقاع الخارجية، وعدم اقترانه بالوزن يعني أنّه كلام غير منظوم وبسببه أضحى كلاما متفرقا موزعا يشبه اللؤلؤ المنثور، ومن ذلك ما جاء به مسكويه: "فكذلك النظم والنثر يشتركان في الكلام الذي هو جنس لهما، ثم ينفصل النظم عن النثر بفضل الوزن الذي صار به المنظوم منظوما"¹². لكن النثر إن خلا من الوزن والقوافي. لا يخلو من العناصر الجمالية إما في اللفظ أو في المعنى أو فيهما معا ليحقق أدبيته.

هذه النظرة الجزئية للنثر تقوم على المفاضلة بينه وبين الشعر، لكن هذا الأخير يشترك مع النثر في جانب المعنى، بينما ينفرد هو بالوزن ويفضل به، فالنثر عند ابن مسكويه هو كلام فيه معنى غير أنّ مقوماته الجمالية لا تصل إلى مستوى الشعر المميز بالوزن والإيقاع "ولما كان الوزن حيلة زائدة وصورة فاضلة على النثر، صار الشعر أفضل من النثر من جهة الوزن، فإن اعتبرت المعاني، كانت المعاني مشتركة بين النظم والنثر"¹³.

والجاحظ من جهته حاول أن يعيد للنثر اعتباره من هذا الاتجاه حين نسب الأفضلية للنثر في حفظ المعارف الإنسانية وتقييدها فيقول: "فقد صح أنّ الكتب

أبلغ في تقييد مآثر الامم من الشعر" ¹⁴. وفي دور النثر وأفضليته على الشعر يتحدث ابن سنان الخفاجي (ت 466هـ) في الحاجة إلى الكتابة ونفعها ومما يقول في هذا الشأن: "وأما الذي نقوله في تفضيل النثر على النظم فهو: أن النثر يعلم فيه أمور لا تعلم في النظم كالمعرفة بالمخاطبات، وبينه الكتب والمعاهدات والتقليدات، وأمور تقع بين الرؤساء والملوك يعرف ¹⁵ بها الكاتب أمورهم ويطلع على خفي أسرارهم وأن الحاجة إلى صناعة الكتابة ماسة والانتفاع بها في الأغراض ظاهر." ¹⁶ ومصطلح "كتابة" هنا يقصد به النثر الفني الذي يشير إليه أبو هلال العسكري بقوله: "وأن يسلك في تأليف الكلام الذي يخرج عن حكم الكلام المنثور العاطل الذي يستعمله العامة في المخاطبات والمكاتبات إلى حكم المؤلف الحالي بحلي البلاغة والبديع كالاستعارات والتشبيهات والأسجاع والمقابلات وغيرها...". ¹⁷ هذا هو النثر الابداعي الذي تكون لفته ذات سحر خاص قادرة على إثارة الدهشة والانفعال العميق، وإثارة المتعة الفنية في المتلقي (قارئاً أو سامعاً). أو بعبارة أخرى هو الكلام الذي يشتمل على جمالية فنية في صياغته وأسلوبه، هو كما يقولون: "نثر كثر الورد، نثر كالسحر أو أدق... نثر سحره كالبيان، نثر كالحديقة تفتحت أحداق وردها". ¹⁸ هذا الكلام يشير إلى أن صناعة النثر الفني (الكتابة الفنية) عناصر فنية، وخصائص جمالية. أوردتها النقاد مشتركة بين الشعر والنثر على شاكلة ما جاء في حدّ النثر ومفهومه - كما أشرنا سابقاً - حيث لم يخضعوا لكل واحد من الفنين حديثاً، وإنما جاءت نظيراتهم في باب واحد أين يتفقان ويشتركان في وجوه البيان وفصاحة الألفاظ وبلاغة وجودة المعاني، ودليل ذلك قول ابن وهب في البرهان: "وقلنا إن الشعر كلام مؤلف، فما حسن فيه فهو في الكلام حسن وما قبح فيه فهو في الكلام قبيح،

فكل ما ذكرناه هناك من أوصاف الشعر فاستعمله في الخطابة والترسل ، وكل ما قلناه من معايبه فتجنبه ها هنا .". ولا يكون العمل الأدبي شعرا كان أونثرا عملا فنيا تتحقق من خلاله شعرية وجمالية تصل المتلقي إلا إذا توفرت فيه عناصر البلاغة والفصاحة وما يتعلق بهما .

صحيح أن العرب القدامى كثيرا ما أشاروا إلى أنّ الشعر مثل النثر في القيم الفنية والجمالية ، واتفقوا على العناصر التي تحقق جمالياتها ، وهي ما يطرب السامع بعد إفهامه والوصول به إلى الفهم مع بلاغة وبيان في الاسلوب ، فالبلاغة هي المعنى الجيد الموافق للعقل ، حيث لا يكتفي بنقل المعنى على أكمل وجه ، بل يحقق الإطراب بما يقدمه من صور وإيقاع وموسيقى تثير العواطف النبيلة ، مما يؤدي إلى التطهير الذي تحدث عنه ارسطو¹⁹.

هذا مما تشاكل فيه النظم والنثر في المباحث النقدية . غير أنّ للنثر عناصر فنية خاصب تحقق شعريته ، وجماليته . ولعل أولها "الإيقاع" . لكنه ليس إيقاع الأوزان والقوافي بل هو إيقاع من نوع آخر . والأساس بضرورة توفر الإيقاع في النثر ترجع للنقاد القدامى ، ومن بينهم ابن الأثير الذي يرى أنّ : " من له أدنى بصيرة يعلم أنّ للألفاظ في الأذن نغمة لذيدة كنغمة الأوتار... وأن لها في الفم أيضا حلاوة كحلاوة العسل ، ومرارة كمرارة الحنظل، وهي على ذلك تجري مجرى النغمات والطعوم"²⁰. فالألفاظ عند دخولها في التركيب تتصل مع ما قبلها وما بعدها في خلق إيقاع داخلي للنص . ولا بدّ من تجنب التنافر الصوتي بين الكلمات وحروف الكلمة الواحدة ، لأن ذلك أبعد ما يكون عن الانسياب الإيقاعي في النص ، ف " تنافر الألفاظ من أكبر عيوب الكلام"²¹. كما أنه يشعر المتلقي بالتكسر

ولا استرسال في تركيب الجمل والعبارات ، والإيقاع ليس مجرد علامة جمالية خارجية فقط ، بل هو وسيلة تبليغية يستدعيها الناثر لإثارة المتلقي .ومن ثمّ فهو استدعاء للمعاني إذ أنها تحدده وتضبطه ، فيصبح للإيقاع وظيفة دلالية تضاف للوظيفة الجمالية .

هذا الإيقاع وما يحققه من جمالية ودلالية للنثر الفني له عناصره التي تجسده ، وقد اتفق البلاغيون عليها قديما وجعلوها متعارفة بينهم ، ويمكن مبعثها في : " المناسبة والموازنة بين الألفاظ في الجمل والعبارات ، أو بين الجمل والعبارات أنفسها ، وهذا التناسب قد يكون لفظيا أو قد يكون معنويا ..."²² . فالإيقاع في النثر مرده التناسب بين الألفاظ في الجمل والعبارات ، وهذا التناسب يكون في الألفاظ يتمثل في السجع والازدواج ، فأما السجع فهو : " تواطؤ الفواصل في الكلام المنظور على حرف واحد " .²³ ومعناه أن يكون الكلام المنشور على فواصل مشابهة للقافية في المنظوم . وللسجع أنواع وتعريف جال فيها القدماء في باب البحث في علم البديع .

وأما الازدواج فهو : "عبارة عن تقسيم الكلام الى فقر متساوية متوازنة في الطول والقصر ، وقد تكون متوازنة في الوزن أيضا "²⁴، وله أيضا ضرب لا حاجة لنا بالتفصيل فيهما الان . وإذا كان كل من السجع والازدواج يحققان التناسب اللفظي ، فالتناسب المعنوي عند النقاد يتحقق بأن يكون : " معنى كل لفظة من اللفظتين المتناسبتين مقاربا أو مطابقا لمعنى الأخرى ، أو أن يكون مضادا لها ، أو قريبا من ذلك ، وقد اتفق أكثر النقاد على تسمية هذا النوع بالطباق أو التضاد ، أما النوع الأول فقد أسموه جناسا . "²⁵ وهما متعلقان بمعاني الكلمات لا

بشكلها. بالإضافة إلى المقابلة وهي " في أصلها ترتيب الكلام على ما يجب، فيعطي أول الكلام ما يليق به أولا، وآخره ما يليق به آخرا، ويأتي في الموافق بما يوافقه وفي المخالف بما يخالفه"²⁶. وهذا يمكن المتلقي من الحصول على إيقاع موحد بفضل تكرار الألفاظ وما يقاربه فيحدث انسجاما واسترسالا عذبا للمعاني والأفكار ما توافقت مع المعنى في القوة واللين وتجنبت الإفراط في التكلف والتصنع.

هذه العناصر المحققة للإيقاع الداخلي للنثر الفني، تحقق الى جانب الفصاحة والبلاغة والمجاز شعرية النثر الفني، وتختلف بعدا دلاليا ونفسيا في المتلقي. وهذا ما اجتمع عليه النقاد العرب في مسائل جمالية النثر، إلى جانب مسائل أخرى شكلت محور المباحث النقدية هي: باب تفضيل الشعر على النثر أو العكس، إذ تبارى النقاد القدما على إظهار محاسن هذا على ذلك، كما كانت لقضية اللفظ والمعنى مساحة شاسعة في النقد العربي القديم

هذه محاولة لرصد مفهوم النثر الفني في تصانيف النقد العربي القديم، واستقراء ماهيته ضمن تعاريف للخطاب الشعري والتي لم يعثر فيها على مفهوم محدد يخرج به النثر الفني مستقلا عن ماهية النظم وخصائص الشعر. غير أن الباحثين في العصر الحديث لهم محاولات جادة لتعريف النثر الفني وتحديد مفهومه. فقد ذهب عمر فروخ مثلا إلى: " أن النثر هو الكلام هو الكلام الذي يجري على السليقة من غير التزام الوزن، وقد يدخل السجع والموازنة والتكلف الكلام، ثم يبقى نثرا إذا بقي مجردا من الوزن"²⁷. والنثر عنده أسبق أنواع الكلام للوجود، وهو نوعان: مسجع إذا التزم كل فقرتين أو أكثر قافية، أو مرسل إن كان غير ذلك*. وهذا يجعلنا الى

وجود أنماط للنثر الفني ، وهو ما عرف بمدارس النثر الفني في العصر العباسي سنأتي على ذكرها لاحقاً بالتفصيل .

ويعرفه شوقي ضيف : " النثر الذي يقصد به صاحبه إلى التأثير في نفوس سامعيه ، والذي يحتفل فيه من أجل ذلك بالصياغة وجمال الأداء"²⁸ بمعنى ذلك النثر الذي يرتفع فيه أصحابه إلى لغة فيها فن ومهارة وبلاغة . وهو : " الكتابة الفنية التي تشمل القصص المكتوب ، كما تشمل الرسائل الفنية المحبرة ، وقد تتسع فتشمل الكتابة التاريخية المنمقة . كما نجد أيضاً الدكتور طه حسين يطلق على الأدب " مأثور الكلام نظماً ونثراً " يقول في النثر : " هو هذا الكلام الذي يعني به صاحبه عناية خاصة ، ويتكلفه تكلفاً خاصاً ، ويريد أن يأخذك بالنظر فيه والتعميل عليه ، كما يعني الشاعر بشعره ، ويحاول أن يؤثر به في نفسك . أي أنه قائم على مظاهر الجمال من جهة ، وقصدية التأثير في النفس من جهة أخرى ، لذلك وجب على الأديب أن يعنى في نثره بالتفكير والجمال في الآن ذاته ومن خلال هذه الجملة من الآراء يتبين أن النثر أو الكتابة الفنية إنما هو تشكيل لغوي يتجاوز خاصية الإفهام إلى ما وراءه من الحسن والإثارة ، فهو يسعى هذه اللغة إلى تحقيق وظيفة إبلاغية و دلالية ، ويتجاوزهما إلى وظيفة جمالية تأثيرية تبني بين المبدع والمتلقي

المراجع:

¹ ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، م 10 ، دار صادر بيروت ، لبنان ،
دت ، ص 191 .

النثر العربي ومدلوله بين القدماء والمحدثين.

² - ابو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم بن منظور ، لسان العرب ، م 10 ، دار صادر بيروت ، لبنان ،
دت ، ص 191.

³ - أبو القاسم محمد بن عمر الزمخشري ، أساس البلاغة ، تح عبد الرحيم محمود ، دار المعرفة ، بيروت
، دت ، ص 446

⁴ نفسه ، ص 446

⁵ - الزمخشري ، أساس البلاغة ، ص 446

⁶ - أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا ، مقاييس اللغة ، تح عبد السلام هارون ، مج 5 ، دار الجليل ،
دط ، ص 389

⁷ - سورة الانفطار ، الآية رقم 2 .

* يطلق على النثر الفني في الدرس النقدي العربي : النثر الأدبي والكتابة الفنية والحطاب النثري الفني و
الانشاء

⁸ - ابن وهب ، البرهان في وجوه البيان ، تحقيق حفي محمد شرف ، مكتبة الشباب ، القاهرة ، 1969 ،
ص 127

⁹ - عبد الرحمن بن خلدون ، المقدمة ، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، لبنان ، ط 1 ،
2004م ، ص 566.

¹⁰ - نفسه ، ص 567.

¹¹ - نفسه . 567.

¹² - ابوحيان التوحيدي ، الهوامل والشوامل ، الموسوعة الشعرية ، المجمع الثقافي ، الامارات العربية
المتحدة ، الاصدار الثالث ، 2003 ، ص 554.

¹³ - التوحيدي الهوامل والشوامل ، مصدر سابق ، ص 554.

¹⁴ - أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، كتاب الحيوان ، تح عبد السلام هارون ، مكتبة مصطفى الباني
الخلي ، القاهرة ، ط 2 ، 1965 ، ص 86

- 16 - ابن سنان الخفاجي ، سر الفصاحة ، المجمع الثقافي ، الامارات العربية المتحدة ، الاصدار الثالث ، 2003، ص 491 .
- 17 - أبو عباس أحمد علي القلقشندي ، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء ، ج10، المؤسسة المصرية العامة للتأليف والترجمة والطبع والنشر ، دط، دت ، ص323 .
- 18 - أبو إسحاق الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب ، شرحه الدكتور زكي مبارك ، مج 1، دار الجليل، بيروت لبنان ، ط5، 1999، ص164 .
- 19 - ينظر : حسين الصديق ، فلسفة الجمال ومسائل الفن ، ط1 ، دار القلم العربي ودار الرفاعي ، حلب ، سوريا ، 2003 ، ص270 .
- 20 - ابن الأثير ، المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر ، تح أحمد الحوفي وبدوي طبانة ، دط ، دار النهضة ، القاهرة ، ص221 .
- 21 - ابوهلال العسكري ، الصناعتين في الكتابة والشعر ، تح د مفيد قبيحة ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، 1981، ص160 .
- 22 - ينظر : عثمان موافي ، في نظرية الأدب من قضايا الشعر والنثر في النقد العربي القديم ، ج1، دار المعرفة الجامعية ، 2002، ص97 .
- 23 - عثمان موافي ، في نظرية الادب م س ، ص30 .
- 24 - نفسه ، ص99 .
- 25 - نفسه ، ص101 .
- 26 - ابن رشيق القيرواني ، العمدة ، ج2 مطبعة السعادة ، القاهرة ، دت ، ص15 .
- 27 - عمر فروخ ، تاريخ الادب العربي (من مطلع الجاهلية إلى سقوط الدولة الأموية) ، دار العلم للملايين ، ط4 ، 1981، ص44/45 ،
- * هذا ما أورد أيضا أحمد حسن الزيات في كتاب :تاريخ الادب العربي
- 28 - شوقي ضيف ، تاريخ الأدب العربي (العصر الجاهلي) ، ط17 ، دار المعارف ، القاهرة ، دت ، ص398 .